

أهمية الماء وتدابير المحافظة عليه في القرآن والسنة

عبد العزيز عزوزي¹ - جواد عجوري²

دكتوراه تخصص جغرافيا طبيعية وبيئة، جامعة ابن طفيل - القنيطرة

دكتوراه تخصص الفقه والأصول والمالية التشاركية، جامعة محمد الأول - وجدة

ALAMALMID87@GMAIL.COM

استلام البحث: 23-06-2024 مراجعة البحث: 19-08-2024 قبول البحث: 23-08-2024

ملخص

تعتبر قضية الماء في الوقت الراهن، إحدى أهم القضايا التي استأثرت باهتمام المؤسسات الدولية الحكومية وغير الحكومية، نظرا لدورها الأساسي في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ونظرا للتحديات المختلفة التي تواجهها وعلى رأسها الندرة الطبيعية الناتجة عن شح التساقطات المطرية والتقلبات المناخية، والندرة الاقتصادية الناتجة عن التدبير غير العقلاني وغياب منطق الاستدامة في مختلف الاستعمالات الزراعية والصناعية والمنزلية. من هذا المنطلق، سعى هذا البحث إلى إبراز سبق التشريع الإسلامي في معالجة مثل هذه القضايا سواء من حيث أهمية الماء في تحقيق التنمية بمختلف تجلياتها الاجتماعية والاقتصادية، أو من حيث توجيهات تدبيره المستدام، وذلك بهدف إيجاد حلول للوضع المائي المعقد على أسس دينية. وقد توصلت الدراسة إلى أن التشريع الإسلامي ركز على أهمية الماء في حياة الإنسان الاقتصادية والاجتماعية، واعتبره ملكا عاما لا ينبغي الاستفراد به، كما شجع على الاستثمار فيه وحماية الموارد المائية من الإسراف والتلوث ضمانا لاستدامته.

الكلمات المفتاحية: القرآن والسنة، تدبير الماء، الاستدامة، التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

Abstract:

The issue of water is currently considered one of the most important issues that have captured the attention of international governmental and non-governmental institutions, given its fundamental role in economic and social life, and given the various challenges it faces, most notably the natural scarcity resulting from scarcity of rainfall and climate fluctuations, and the economic scarcity resulting from improper management. Rationalism and the absence of sustainability logic in various agricultural, industrial and domestic uses. From this standpoint, this research sought to highlight the precedence of Islamic legislation in addressing such issues, whether in terms of the importance of water in achieving development in its various social and economic manifestations, or in terms of directives for its sustainable management, with the aim of finding solutions to the complex water situation on religious grounds. The study found that Islamic legislation focused on the importance of water in human economic and social life, and considered it a public property that should not be isolated. It also encouraged investment in it and the protection of water resources from waste and pollution to ensure its sustainability.

Keywords: Quran and Sunnah, water management, sustainability, economic and social development

مقدمة:

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء، الآية 30). فالماء أول الموجودات وهو نعمة من نعم الله، بل يعتبر حسب الآية الكريمة أصل الحياة وعصبها، لذلك نشأت الحضارات القديمة حول مصادر المياه (نهر النيل، دجلة والفرات...)، وارتحل الإنسان للبحث عنها، والابتعاد بها في الشرب والزراعة والصناعة.

ولا شك أن موضوع الماء في القرآن والسنة يفتح على مجالات كثيرة ومتشعبة يصعب حصرها أو التطرق لها في شموليتها في مثل هذه البحوث، لذلك اختار الباحثان أن يخصصا هذا البحث لموضوع من موضوعاته الأكثر راهنية وهو "تدبير الماء"، فمعظم دول العالم وخاصة تلك التي تتواجد في النطاق المناخي الجاف وشبه الجاف كالمنطقة العربية ما فتئت تبحث عن

حلول تقنية وقانونية لمعضلة الجفاف والخصائص المائي. لذلك، ارتأينا أن نناقش مسألة تدبير الماء من منظور ديني قوامه الآيات القرآنية والنصوص النبوية التي يتم تغييبها في الغالب أثناء وضع السياسات المائية.

أهمية البحث

تتمثل أهمية الدراسة في الكشف عن بعض أدوات إدارة الموارد المائية من منطلق ديني، لكون الشريعة الإسلامية وضعت مجموعة من القواعد العامة لتدبير هذا المورد الحيوي، والتي ينبغي إبرازها لتعزيز الوعي البيئي الذي يحث على ضرورة الحفاظ على هذا المورد، وتمكين الضعيف والمساكين من الوصول إلى القدر الكافي والأمن منه بشكل منتظم ومستدام في إطار بيئة شاملة تتسع للجميع.

مشكلة البحث

تعاني معظم الدول العربية والإسلامية من مشكل الخصائص المائي أو ما يمكن أن نسميه للدلالة على خطورة الظاهرة بـ "الفقر المائي"، وهذا الفقر ناتج عن الندرة الطبيعية؛ نظرا لموقع هذه الدول في النطاق المناخي الجاف وشبه الجاف، وندرة اقتصادية ناتجة عن سوء التدبير والاستغلال. هذا السبب الأخير دفعنا إلى التساؤل عن موقف الدين الإسلامي الذي يعتبر من مصادر التشريع في هذه الدول من هذا النوع من الاستغلال المفرط؟ وهل وضعت النصوص القرآنية والنبوية مبادئ وقواعد لتدبير الموارد المائية؟

بطبيعة الحال هذه الأسئلة نمتلك نحن المسلمين أجوبتها بالإيجاب، وهي أمور يقينية لدينا قبل أن نبحث عن الجواب لأننا ندرك أن خالق هذا الكون خلقه على نظام محكم دقيق، قال تعالى ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد، آية رقم 8)، فالغاية إذا من طرح هذه الأسئلة ليست إلا رغبة في الوصول إلى القدر اليسير من آليات تدبير الماء في القرآن الكريم.

أهداف البحث:

-إبراز أهمية الماء في حياة الانسان من منظور قرآني

-توجيه عامة الناس وكافة المتدخلين في مجال تدبير الموارد المائية إلى اعتماد المبادئ التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية في مجال الحفاظ على الماء.

منهج البحث:

اعتمد الباحثان على المنهج الاستقرائي والتحليلي من خلال تتبع واستقراء النصوص القرآنية والنبوية التي تبين أهمية الماء وتوجيهات تدبيره واستغلاله بشكل معقلن، ثم تحليلها ومناقشتها للوصول إلى منهج يحقق استدامة هذا المورد الثمين.

خطة البحث:

على ضوء ما تقدم يمكن معالجة هذا البحث في ثلاثة مباحث:

الأول: تأطير مفاهيمي للماء من خلال الآيات القرآنية

الثاني: أهمية الماء في القرآن والسنة

الثالث: توجيهات تدبير الماء في القرآن والسنة.

المبحث الأول: تأطير مفاهيمي

المطلب الأول: مفهوم الماء وأنواعه في القرآن الكريم

الماء مركب كيميائي سائل عديم اللون والرائحة يتشكل من ذرتي هيدروجين وذرة أوكسجين (H_2O)، وهو من العناصر الأكثر وجود في هذا الكوكب وتتشكل من المياه المالحة 97.5 بالمائة بينما لا تتعدى المياه العذبة 2.5 بالمائة.

يمكن أن تتوزع كميات المياه في الكرة الأرضية كنسب مئوية كما يأتي (أبو سمور والخطيب، 1999، ص 11):

-تحتوي البحار والمحيطات على 97.2 بالمائة من مياه الكرة الأرضية

-تحتوي الجبال الجليدية والمناطق القطبية على 2.15 بالمائة من مجموع مياه الكرة الأرضية

-تحتوي الأنهار والبحيرات والينابيع والآبار والمياه الجوفية على نسبة 0.64 بالمائة من مجموع مياه الكرة الأرضية

-يحتوي الغلاف الغازي على 0.01 بالمائة من مجموع الماء الموجود في الأرض على شكل بخار وماء.

وعلى الرغم من الحجم الكبير للمياه بمختلف أشكالها على الكرة الأرضية إلا أن النسبة التي تغطي الحاجيات المنزلية والاقتصادية (الزراعية، الصناعية...) لأزيد من 6.5 مليار نسمة من السكان على سطح الأرض لا تتجاوز 0.64 بالمائة من مجموع مياه الكرة الأرضية، وهي نسبة ضعيفة بالمقارنة مع عدد السكان وتطور عادات استهلاكهم للماء.

وتتقسم الموارد المائية العذبة القابلة للاستغلال إلى نوعين:

-الموارد المائية السطحية وهي مياه الأودية والسدود ومختلف المستجمعات المائية الطبيعية والاصطناعية...

-الموارد المائية الجوفية وهي المياه المخزنة في مسام الصخور الرسوبية، ويتطلب استخراجها واستعمالها تكاليف إضافية، وتعتبر من المصادر الرئيسية للمياه العذبة في الوطن العربي.

ومع امتداد الفصل الجاف وتزايد المتطلبات الزراعية والمنزلية من الماء اتجهت بعض الدول التي تتواجد في المناطق الجافة وشبه الجافة، والتي تتوفر لديها الإمكانيات المادية (دول الخليج العربي على سبيل المثال)، إلى البحث عن مصادر مياه بديلة تسمى بالمياه غير التقليدية، خاصة بعد التقدم التقني والتكنولوجي الكبير الذي شهده العالم خلال العقد الأخير، ويمكن التمييز في هذه المياه بين نوعين:

المياه المحلاة: يتم إنتاجها بعد مجموعة من العمليات الصناعية التي تتعرض لها مياه الآبار المالحة أو مياه البحر قصد إزالة ملوحتها والمعادن العالقة بها.

المياه المستعملة المصفاة أو المطهرة يتم إنتاجها في الغالب من تصفية مياه الصرف الصحي.

وتختلف الوضعيات والأوصاف التي خص بها القرآن الكريم الماء باختلاف أشكاله والوظائف المنوطة به في كل آية من الآيات التي تحدثت عن الماء، فكلمة الماء في أوصافها المختلفة ذكرت ثلاث وستون مرة في اثنان وأربعين سورة وشملت مفاهيمه جميع مراحل دورة الماء، بدءا بخروجه من الأرض، يقول الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا

وَمَرَعَاهَا﴾ (النازعات الآيتين 30 و 31) وصعوده إلى السماء عن طريق عملية التبخر التي تتعرض لها المسطحات المائية ليتشكل السحب وتنقله الرياح ليتساقط مطرا (الودق) على الأرض التي قدر الله أن يسكنه فيها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور: 43) لينتهي به المطاف على سطح الأرض وتتشكل ما يعرف بالمياه السطحية على شكل جريان تسيل به الأودية والشعاب على القدر الذي تحتمله، قال الله تعالى ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيزَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: 17). بالإضافة إلى تأكيد الآية على أهمية المطر في إنعاش الجريان السطحي (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) تشير كذلك إلى ما يسمى في علم الجغرافيا بتراتبية الأنهار والأودية كشكل من أشكال انتظام الجريان السطحي، فالجزء من الآية (فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرٍ) يبين أن حمولة الأنهار المائية تختلف حسب أحجامها ورتبتها، والاشارة كذلك إلى أهمية الماء في العمليات الجيومورفولوجية المرافقة لحركته على السطح وفي الأعماق (عملية نقل وترسيب الحمولة النهرية المعلقة والذائبة).

ويشير القرآن الكريم إلى المخزون الجوفي من المياه بقوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (الآية 18 المؤمنون) فالقرطبي يقول في تفسيره للآية (أسكنه في الأرض) "وجعله فيها مختزنا لسقي الناس يجدونه عند الحاجة إليه، وهو ماء الأنهار والعيون، وما يستخرج من الآبار (القرطبي، 2006، ص 23). وإذا تأملنا في لفظ "أسكنه" فإنه يدل على المكوث لفترة طويلة، وهوما نراه في المياه الجوفية ومياه الآبار والتي تبقى فترة طويلة ساكنة في الأرض دون أن تفسد أو تذهب أو تتفاعل مع صخور الأرض. وإذا زاد السحب والاستغلال عن الحاجة المعقولة نضب الماء ونزل في أغوار الأرض، ولن يستطيع الإنسان إليه سبيلا إلا بقدر من الله تعالى الذي يقول في محكم تنزيله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (الملك: 30)، ويفسر الطبري هذه الآية بقوله: "يقول تعالى ذكره لنبية محمد صلى الله عليه وسلم: قُلْ (يا محمد لهؤلاء المشركين): أَرَأَيْتُمْ (أيها القوم العادلون بالله) إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا (يقول: غائرا لا تتاله الدلاء) (فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) (يقول: فمن يجيئكم بماء معين، يعني بالمعين: الذي تراه العيون ظاهرا)" (الطبري، 2001، ص 138).

كما أن هذه العملية الطبيعية أي دورة الماء وحركته بين الحالات الفيزيائية السائلة والغازية (التبخر والتساقط) والتي تتم بقدر من الله تعالى وبدون أدنى تدخل بشري لا مادي ولا تقني، فيها مجموعة من العمليات الفريدة التي تتفق عليها الدول التي تعاني من ندرة طبيعية للماء المليارات من الدولارات لتوفير الماء؛ إما عن طريق تلقيح السحب اصطناعيا، أو عن طريق إحداث محطات لتحلية ماء البحر، فالحصول على الماء بتحلية مياه البحر ليس في متناول جميع الدول العربية، فإذا كان متاحا وربما غير مكلف اقتصاديا بالنسبة للدول البترولية (دول الخليج العربي) إلا أنه صعب بالنسبة للدول الأخرى، وذلك نظرا لارتفاع تكلفة هذه العملية التي تتراوح حسب برنامج الأمم المتحدة للتنمية (برنامج الأمم المتحدة للتنمية، 2013 ص 20) بـ 1.5 و 4 دولار للمتر المكعب الواحد من المياه المحلاة، وذلك حسب نوع التقنية المستعملة في هذه العملية، في حين أن الشريعة الإسلامية وجهتنا إلى تحقيق كل هذه العمليات المعقدة والمكلفة عبر الدعاء وصلاة الاستسقاء وتجنب الاسراف وشكر النعم.

المطلب الثاني: مفهوم تدبير الماء

يقصد بتدبير الموارد المائية حسب مجموعة الشراكة العالمية للمياه (CLOBALE WATER PARTNERSHIP)، "كل العمليات التي تساعد بشكل منسق على تعزيز وتطوير المياه والأراضي والموارد ذات الصلة، من أجل تحقيق الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية بطريقة منصفة ودون المساس باستدامة النظم البيئية الحيوية"(موقع مجموعة الشراكة العالمية للمياه على شبكة الأنترنت <https://www.gwp.org> ، 2024). كما تعرف إدارة أو تدبير الموارد المائية بكونها "عملية مشتركة تشمل جميع أنشطة تخطيط وإعداد وتشغيل أنظمة هذه الموارد بحيث تدمج جميع الجوانب المتعلقة بالماء، ومنه فالمفهوم يأخذ في الاعتبار" (H.H.G Savenije, 1996, p3) :

جميع الجوانب الطبيعية لنظام الموارد المائية: المياه السطحية، المياه الجوفية ونوعية الماء الفيزيائية والبيولوجية والكيميائية.

مصالح مستعملي الماء في جميع القطاعات الاقتصادية (الزراعة إمدادات المياه، الطاقة المائية، النقل الداخلي...).

الأهداف والقيود الوطنية ذات الصلة (الاجتماعية والقانونية والمؤسسية والمالية والبيئية...).

الإطار المؤسسي والفاعلون (وطنيا وإقليميا ودوليا).

التباين المجالي للموارد والحاجيات (العلاقات بين المنبع والصب، النقل بين الأحواض).

نفهم من هذه التعاريف، أن عملية تدبير الموارد المائية لا تهدف فقط إلى توفير القدر الكافي من الماء، أو أنها تتم خلال فترات الندرة فقط، بل هي عملية مستمرة وحاضرة خلال فترات الفيض (التحكم في الفيضانات واستغلال مياهها بشكل ايجابي...) والندرة على حد سواء، وفي حالات تدهور جودة المياه، وكذلك في حالات حدوث تنافس بين القطاعات الاقتصادية حول الماء (استحواذ قطاع معين على الماء دون غيرها من القطاعات الأخرى)، بالإضافة إلى الحاجة إليها -أي عملية تدبير الموارد المائية- لتصحيح اختلالات التوزيع المجالي غير المتكافئ للموارد المائية.

والمياه هي الحياة وتمكين الإنسان من الوصول إلى القدر الكافي والأمن منها يعني تمكينه من الحياة التي تعتبر حق من حقوقه الأساسية والطبيعية، والتي أوصى الشرع بحفظها والذود عنها. لذلك، سعت السنة النبوية إلى تشجيع الناس على الاستثمار في حفر الآبار وإحداث تغييرات على الأنهار، إلى جانب تشريع صلاة الاستسقاء في حالات الجفاف وانحباس المطر، وذلك في إطار تدبير العرض المائي، إلى جانب التحذير من إفساده وتلويثه أو الإسراف في استعماله في إطار تدبير الطلب على الماء.

المبحث الثاني: أهمية الماء المجتمعية والاقتصادية

أكد الحق سبحانه وتعالى على أهمية الماء الاقتصادية عندما ربط في آيات كثيرة بداية خلق الانسان ومظاهر الحياة على سطح الأرض بعنصر الماء "وجعلنا من الماء كل شيء حي"، فهو مصدر خلق الانسان وعنصر ضروري لإحياء الأرض، ومورد طبيعي يستحيل الإنتاج الزراعي بدونه كما أنه يدخل في العديد من الصناعات ...

المطلب الأول: الماء وخلق الانسان

لم يخطئ من وصف أو عرف الماء بسائل الحياة، حياة الإنسان والدواب والأرض والنبات مصداقا لقوله تعالى ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ (الأنبياء الآية 30). ويدخل في تكوين معظم الموجودات إن لم نقل كلها، وأبرز هذه

الموجودات الإنسان الذي يوجهه تبارك وتعالى إلى التأمل في دور الماء في خلقه، قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ﴾ (الطارق الآيتين 5 و6) فقد توصل العلم الحديث أن الماء يشكل ما بين 60 إلى 70 بالمائة من جسم الانسان، "والماء هو المكون الرئيسي للخلايا والأنسجة والأعضاء وهو عنصر ضروري وحيوي للحياة" (Lang F, 1997, P 85) فجميع أجهزة الجسم، الهضمية، التناسلية، العصبية، الكلى والكبد ... كلها تعتمد على الترطيب للاشتغال بالفاعلية المطلوبة" (E Je'quier and F Constant , 2010 , p 64) وتختلف كميات الماء في جسم الانسان باختلاف مراحل النمو واختلاف الفئات السنية والجنسية، حيث تبلغ أعلى مستوياتها عند الرضع والأطفال وتنخفض عند البالغين كما أنها ترتفع عند الذكور وتقل عند الإناث.

وتبعاً لهذه الأهمية ربط الله تعالى خلق الإنسان ونموه وتكاثره وجميع المخلوقات والدواب بالماء، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ...﴾ (غافر الآية 67) وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۚ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان، الآية 54). والمقصود بالماء هنا، النطفة، حيث جاء في تفسير ابن كثير: "وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً" أي: خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسواه وعدله، وجعله كامل الخلقة، ذكراً أو أنثى، كما يشاء (فجعله نسباً وصهراً)، فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقربات. وكل ذلك من ماء مهين" (ابن كثير، 1999، ص 117) فالماء حسب هذه الآية هو سبب وجود الإنسان، وهو كذلك سبب تناسله وتكاثره، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (السجدة الآية 8).

المطلب الثاني: الماء وإحياء الأرض

شكلت نقط الماء (الأنهار، البحيرات...) مناطق استقرار الأمم والشعوب ومحركاً لاقتصاداتهم التي قامت في بداية الأمر الزراعة وتربية الماشية، ويقول الرازي في هذا الصدد: "إن أكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والأنهار ومناجم المياه" (الرازي، 1981، ص 14)، فنجد أن المصريين القدماء أقاموا حضارتهم حول نهر النيل والبابليون في العراق على نهري دجلة والفرات. وربط الله تعالى في محكم تنزيله إحياء الأرض بعد موتها وقحولتها بوجود الماء، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنَبِّتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ﴾ (الحج الآية 5). فالله تبارك وتعالى يخاطب المشككين في قدرته على البعث بهذه الآية التي تصف في بدايتها مراحل خلق الإنسان وتطوره بشكل متناهي الدقة، وفي نهايتها بمراحل إحياء الأرض، وكلتا العمليتين تحتاجان إلى الماء. يقول عبد الرحمان عميرة فيما يتعلق بإخراج الأرض من حالة الهمود أو الموت إلى حالة الحياة والإنبات: "لقد شارك الماء ابتداء -بقدره الله تعالى- في جعل تربة الأرض السطحية صالحة للإنبات عندما تكون ملتهبة وصلبة لا تصلح لإنبات النبات، ولقد تم ذلك بتعاون الماء والعوامل الجوية الأخرى على تحويلها إلى تربة لينة سهلة، ثم ظل الماء يشارك في إخصاب هذه التربة، وذلك بإسقاط النتروجين من الجو كلما أبرق، فاستخلصت الشرارة الكهربائية التي تقع في الجو النتروجين الصالح للذوبان في الماء، والذي كان يسقط مع المطر، فأعاد إلى الأرض خصوبتها (عميرة، 1998، ص 102). كما أن الآية الكريمة - يعني قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنَبِّتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ﴾ تحدثت بدقة عن مراحل الإنبات، فالرحلة تبدأ بإنزال الماء على هذه الأرض حيث يمتزج هذا الماء بذرات التراب، لتبدأ هذه الذرات بالاهتزاز المستمر مما ينتج عنه زيادة في حجم التراب وتمده... () وبعد ذلك تبدأ الحبوب الموجودة في التراب بامتصاص هذا الماء، وتبدأ بالتمدد أيضاً والنمو وتبدأ عملية

الإنبات (...) ومن عظمة القرآن الكريم أنه لخص كل هذه المراحل في ثلاث كلمات فقط "اهتزت، وربت، وأنبتت" (سلامة، 2010، ص 226).

المطلب الثالث: الماء وتوفير الغذاء

تعتبر الزراعة من الأنشطة البشرية التي زاولها الانسان منذ القدم بما يضمن تحقيق اكتفائه الذاتي من الغذاء، ثم تطور دورها فيما بعد لتصبح كمادة خام تدخل في العديد من الصناعات الاستهلاكية. وتعتبر الزراعة في بعض الدول وخاصة النامية إحدى ركائز بنية مبادلاتها التجارية الخارجية. لكن كل هذه الأدوار التي يمكن أن يقوم بها القطاع الزراعي، لن تكون ممكنة دون توفر رأسمالين طبيعيين، وهما الماء والأرض.

لذلك، نجد الربط الصريح والعلاقة السببية في القرآن الكريم بين إنزال المطر من السماء وتفجير العيون من الأرض بإحياء الأرض وإخراج النبات وتوفير الغذاء والطعام المختلف الأشكال والأنواع، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا *¹

ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (عبس: 24-32)، فالآية الكريمة تدعو الانسان إلى التأمل في كيفية ومراحل توفير أهم شيء لاستمراره وهو الطعام، فتوفر الطعام مشروط أولاً بتوفر الماء (أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) ثم توفر الأرض وشقها بمختلف العوامل الجوية (ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا) لتأتي مرحلة الانبات التي جاءت مرتبة حسب أهميتها للإنسان ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾.

ويقول الله تبارك وتعالى في سورة النخل الآيتين 10 و 11 : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تؤكد الآية الأولى على أدوار الماء المنزلية (لكم منه شراب) والفلاحية (ومنه شجر فيه تسيمون) أي عن طريق الماء ينبت النبات الذي توفر الكلاء لماشيتكم، ثم أخذ يفصل في الآية الكريمة بين أنواع مختلفة من الشجر: (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ). ولما كان المحال ذكر كافة الأنواع في آية واحدة، فقد اكتفى بما ذكر من الأنواع التي تهتم الإنسان في حياته اليومية، حيث تشكل طعامه، وبدأ بالزرع (...) وهو كل ما ينبت من الحب لأنه يمثل الطعام الأساسي للإنسان، وأشار إلى الكثرة البالغة التي تستعصي على الإحصاء في مقام واحد قائلا: (وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) (الزهيري، 2003، ص 30).

والتأمل لما جاء في الآيات السابقة يدرك يقينا أن القرآن كلام معجز، فعندما تحدث عن أنواع المزروعات التي تخرج من الأرض بتوفر الماء، بدأ بالحب (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا) (عبس الآية 27)، وجاء في تفسير الطبري لهذه الآية أن الحب كل ما يذكر من الحبوب، وهو الزرع، وهو كل ما أخرجته الأرض من الحبوب كالحنطة والشعير، وغير ذلك (الطبري، 2001، ص 116)، كما بدأت عملية الانبات في الآية 11 من سورة النخل بالزرع (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ)، فالحب أو الزرع يعتبر من المزروعات الأقل استهلاكاً للماء والأكثر أهمية في تحقيق الأمن الغذائي سواء أثناء السلم أو في زمن الحروب والأوبئة، ولنا في الأزمات الأخيرة خير دليل على ذلك، حيث رأينا في الحرب الأوكرانية الروسية وفي أزمة وباء كورونا كيف تخوف العالم من حدوث المجاعات نتيجة الخلل في سلسلة إنتاج وتصدير الحبوب، مما أدى إلى اشتداد الصراع بين دول العالم للحصول على

ما تضمن بها أمنها الغذائي من هذه المادة، لذلك فتركيز الآيتين على الزرع لم يأتي محض صدفة وإنما هو توجيه للحصول على الغذاء بشكل مستمر ودائم وبأقل جهد مائي.

واستمرارا في التأكيد على أهمية الماء في الزراعة وتوفير الغذاء قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (السجدة الآية 27)، وجاء في تفسير الطبري لهذه الآية ما يأتي: " وقوله : (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز): أولم ير هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت، والنشر بعد الفناء، أنا بقدرتنا نسوق الماء إلى الأرض اليابسة الغليظة، التي لا نبات فيها، فنخرج بذلك الماء الذي نسوقه إليها، على يابسها وغلظها، وطول عهدها بالماء، زرعاً خضراً تأكل منه مواشيهم، وتتغذى به أبدانهم وأجسامهم، فيعيشون به (الطبري، 2001، ص 640-643).

المبحث الثالث: توجيهات تدبير الماء في القرآن والسنة

اهتمت مصادر الشرع -وعلى رأسها القرآن والسنة- بذكر مجموعة من التوجيهات التي تحت على التدبير السليم للموارد المائية، وقد ذكرت بعضها في مطلبين على النحو الآتي:

المطلب الأول: تدبير العرض

يمكن تصنيف التوجيهات المتعلقة بتدبير العرض في فرعين، على النحو الآتي:

الفرع الأول: توفير المياه السطحية

معلوم أن تدبير العرض يسعى إلى توفير الحاجيات المختلفة من الماء، من خلال إنشاء السدود لتجميع مياه الجريان السطحي أو التنقيب عن المياه الجوفية، وهي من الموارد المائية التقليدية التي يكون مصدرها الأساس هو التساقطات المطرية، لذلك سعى الإنسان في المناطق الجافة مع تطور العلم الحديث إلى الاستمطار عن طريق تلقيح السحب اصطناعيا، أما الشريعة الإسلامية فوجهت الناس إلى طلب المطر عن طريق الاستسقاء الذي جاء في القرآن الكريم في موضعين:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۚ﴾ (البقرة الآية 60)، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف الآية 160)

وللتأكيد على أن إنزال المطر عمل إلهي، شرع الله لعباده المؤمنين صلاة "الاستسقاء" يستمطرون بها السماء عند حدوث الجذب والجفاف والعطش، ليعلموا ويعاينوا من خلال الصلاة أن إنزال المطر بيد الله وحده. في هذه الصلاة يقول المؤمنون وهم يتضرعون كما جاء عن جابر رضي الله عنه، قال: "أَتَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَوَاكِي، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا، مَرِيئًا مَرِيْعًا، نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ، عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ" قل: فَأُطِيقَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ". (الحديث رواه أبي داود في سننه حديث 1169، كتاب الصلاة، باب رفع اليدين في الاستسقاء، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود 1 / 319).

واقْتَدَاءُ نَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى اسْتَسْقَى مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ أَثْنَاءَ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَيَّنَّمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ عَلَى الْمَنِيرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَامَ أَعْرَابِي فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَ الْمَالُ وَجَاعَ الْعِيَالُ، فَادْعِ اللَّهَ لَنَا أَنْ يَسْقِينَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ، وَمَا فِي السَّمَاءِ قَزَعَةٌ، قَالَ: فَتَارَ سَحَابٌ أَمْثَالُ الْجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مَنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لَحِيَّتِهِ، قَالَ: فَمُطَرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَفِي الْغَدِ، وَمِنْ بَعْدِ الْغَدِ، وَالَّذِي يَلِيهِ إِلَى الْجُمُعَةِ الْآخَرَى، فَقَامَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِي -أَوْ رَجُلٌ غَيْرُهُ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَهْدِمُ الْبِنَاءَ وَغَرِقَ الْمَالُ، فَادْعِ اللَّهَ لَنَا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: "اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا" قَالَ: فَمَا جَعَلَ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا انْفَرَجَتْ، حَتَّى صَارَتِ الْمَدِينَةُ فِي مِثْلِ الْجَوْنَةِ، حَتَّى سَالَ الْوَادِي شَهْرًا، قَالَ فَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةِ إِلَّا حَدَّثَ بِالْجَوْدِ" (صَحِيحُ الْبَخَارِيِّ، بَابُ مَنْ تَمَطَّرَ فِي الْمَطَرِ حَتَّى يَتَحَادَرَ عَلَى لَحِيَّتِهِ، حَدِيثُ 1042).

الفرع الثاني: الدعوة إلى الاستثمار في المياه الجوفية

لعبت مياه الآبار والينابيع دوراً محورياً في الاستقرار البشري بالمنطقة العربية خاصة تلك التي تتواجد في النطاق الجاف وشبه الجاف والذي يتميز بشح التساقطات المطرية وغياب الأنهار الكبرى كذلك التي تتواجد في بلدان النيل والشام، فاستمرار التواجد البشري كان يتطلب البحث والتنقيب عن المياه في باطن الأرض. وتعتمد المنطقة العربية بشدة على المياه الجوفية التي تشكل المصدر الرئيسي للمياه العذبة في أكثر من 11 دولة عربية، وأكثر من 88 بالمائة من مجموع مياه الري في الإمارات العربية المتحدة وعمان وقطر والكويت والمملكة العربية السعودية واليمن مصدرها المياه الجوفية، مقارنة بمتوسط عالمي بالكاد يتخطى 37 في المائة (الأمم المتحدة، الاسكوا، 2021، ص 4-8).

ولأهمية هذا المورد الحيوي شجع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاستثمار في حفر الآبار، ومن أمثلة ذلك وعده صلى الله عليه وسلم من جعل بئر رومة للمسلمين بالجنة، فاشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه من ماله وجعلها وقفا للمسلمين بلا ثمن ليعتبر أول وقف للماء في التاريخ الإسلامي؛ فقد روى البخاري أَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جِئْتُ حَوْصِرَ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ، وَلَا أَنْشُدُ إِلَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ حَفَرَ رُومَةَ فَلَهُ الْجَنَّةُ . فَحَفَرْتُهَا(...)" الْحَدِيثُ (الْبَخَارِيُّ، كِتَابُ الْوَصَايَا، بَابُ إِذَا وَقَفَ أَرْضًا أَوْ بَيْتًا وَاشْتَرَطَ لِنَفْسِهِ مِثْلَ دَلَاءِ الْمُسْلِمِينَ، حَدِيثُ 2795).

ومن أمثلة تأكيد تعاليم الدين الإسلامي على تنمية الموارد المائية والاستثمار فيها ما رواه أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " سبعة يجزي على العبد أجرهن بعد موته في بره: من علم علماً، أو أكرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته" (رواه البزار في مسنده، حديث 7289. قال الألباني في صحيح الترغيب (حسن لغيره)، كتاب العلم، ح 83، ص 140)، فحفر البئر وإكراء النهر أو إحداث حفرة داخله حسب الحديث الشريف من الأمور التي يؤجر عليها المؤمن بعد وفاته.

المطلب الثاني: تدبير الطلب على الماء

أقر الشرع مجموعة من القواعد والاحكام الاستباقية لتدبير الطلب على الماء وحل مشكلاته المختلفة كالتلوث والافراط في الاستعمال، وكذلك المشاكل المرتبطة بالصراع بين الافراد والمجموعات والدول حول مصادر الماء المشتركة. وتفصيل هذه التوجيهات في الفروع الآتية:

الفرع الأول: تدبير الصراع حول الماء المشترك

بالإضافة إلى الندرة الطبيعية الناتجة عن ضعف التساقطات المطرية، والندرة الاقتصادية الناتجة في كثير من الأحيان عن سوء تدبير الموارد المائية وكثافة الاستغلال، يمكن أن تساهم الوضعية الجيوسياسية لبعض الدول في ندرة الماء، والحديث هنا عن الدول التي تمتلك مصادر مائية مشتركة مع دول أخرى. كثير ما اندلعت أزمات سياسية حادة بين هذه الدول حول حقوق الانتفاع، ويعتبر العالم العربي على رأس المناطق المتأثرة بمثل هذه الأزمات، حيث تأتي أزيد من 60 بالمائة من موارده المائية من خارج مجاله الجغرافي والأمثلة في هذا الصدد كثيرة، فمثلا نهر النيل قبل أن يصل إلى مصر والسودان يمر عبر أثيوبيا التي تحاول أن توسع عرضها المائي وتضمن نموها الاقتصادي والاجتماعي بإنشاء سد النهضة على نهر النيل، وما في ذلك من ضرر بليغ على الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدولة مصر، ونفس الأمر بالنسبة لدولة العراق التي تسعى إلى مواجهة الإجهاد المائي بالاستغلال التام لنهري دجلة والفرات، لكن هذا الأمر يصطدم بعدم التفاهم مع دول المنبع تركيا وسوريا.

وقد وضعت الشريعة الإسلامية بناء على مبدأ التكافل بين الأفراد والمجموعات قواعد عامة للانتفاع بمصادر الماء المشتركة، والتي تؤكد على حقوق الانتفاع بين الناس عامة دون التمييز فيما بينهم، بين المسلم وغير المسلم بين الذكر والأنثى أو بين القريب من مصدر الماء أو البعيد عنه... مع مراعاة أوليات الاستعمال (الشرب قبل الزراعة) ولحقوق الانتفاع وللأعراف والتقاليد.

الصراع حول الماء قديم قدم الانسان، وتسويته يقوم بالضرورة على مبدأ تقاسم المياه وعدم احتكارها من جهة دون أخرى، وهذا ما أخبرنا به الله تعالى في سورة الشمس متحدثا عن قصة نبي الله "صالح" مع قوم ثمود الذين ضرمهم قاعدة تقسيم الماء بينهم وبين الناقة ﴿قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ (الشمس الآية 13)، جاء في تفسير الطبري لهذه الآية "قوله تعالى "فقال لهم رسول الله "يعني صالحا عليه السلام "ناقة الله" أي احذروا ناقة الله "وسقياها" قسم الله الذي قسم لها من هذا الماء (الطبري، ج24، 2001، ص 448-449).

ولنا في قصة ابنتا الرجل الصالح عند ماء مدين مع نبي الله موسى مثالا للصراع حول الماء بين من يمتلك القوة، رجال أقوىاء وبين امرأتين لا تستطيعان السقي لوضع الضعف اللتان هما فيه، سواء لكونهما امرأتان قوتهما الجسدية ضعيفة أمام قوة الرجل، وكذلك لامتناعهما عن مزاحمة الرجال والاختلاط بهم، أو لضعف قوة أبيهما لشيخوخته، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْكُونُ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (القصص الآية 23). وجاء في تفسير الطبري لهذه الآية: "ولما ورد ماء مدين) أي: ولما وصل إلى مدين وورد ماءها، وكان لها بئر يسقون بها نعمهم ومواشيهم، ووجد موسى من دون الناس الذين هم على الماء، امرأتان تذودان أي تحبسان غنمهما، وقال بعض أهل التأويل: كانتا تذودان غنمهما عن الماء حتى يصدر عنه مواشي الناس، ثم تسقيان ماشيتهما لضعفهما فلما رآهما موسى عليه السلام، رق لهما (قال ما خطبكما) أي: ما شأنكما وأمركما، تذودان ماشيتكما عن الناس؟ هلا تسقونها مع مواشي الناس (قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء) أي: لا نسقي ماشيتنا حتى يصدر الرعاء مواشيهم؛ لأننا لا نطبق أن نسقي، وإنما نسقي مواشينا ما أفضلت مواشي الرعاء في الحوض، (وأبونا شيخ كبير) أي: لا يقدر أن يمس ذلك من نفسه (الطبري، ج 18، 2001، ص 206-2012). ما يهمنا من الدروس الكثيرة التي يمكن تعلمها من هذه القصة القرآنية، هو ضرورة استشعار معاناة الانسان الضعيف خلال سعيه للحصول على الماء مهما كان سبب ضعفه، وضمان حقه في الحصول على هذه المادة الحيوية عندما يكون مصدر التزود مشتركا.

مبدأ الاشتراك والتقاسم أكدت عليه السنة النبوية كذلك، لقوله صلى الله عليه وسلم: "المسلمون شركاء في ثلاث: في الماء والكلا والنار" (أخرجه أبو داود في "السنن"، كتاب الإجارة، باب في منع الماء، ج 3433. صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، 2/

(3377). انطلاقاً من هذا الحديث الشريف يجمع علماء الشريعة أن مياه الأنهار وخاصة الكبيرة منها ملك لعامة الناس، ولا يجوز حصر حق الانتفاع بها لفئة دون أخرى. يقول القرطبي في هذا الصدد "وأما ماء الأنهار والعيون وآبار الفيافي التي ليست بمملوكة فالإتفاق حاصل على أن ذلك لا يجوز منعه ولا بيعه، ولا يشك في تناول أحاديث النهي لذلك" (القرطبي، 1996، ص 441). من هذا المنطلق، توعّد نبي الله محمداً الذين يقطعون الماء عن ابن السبيل بتجاهلهم من الله، فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَزَكِيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رجل كان له فضل من ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها رضي وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال: والله الذي لا إله غيره، لقد أعطيتُ بها كذا وكذا، فصدقه رجل" (أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشرب، باب إثم من منع ابن السبيل من الماء، 2369/3).

كما جاء في تدبير الماء المشترك وخاصة فيما يتعلق بتوزيع حقوق الانتفاع بين من هم في عالية المجرى المائي، ومن هم في سافلته ما رواه عروة بن الزبير أن عبد الله بن الزبير حدثه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير بن العوام عند النبي صلى الله عليه وسلم في شراج الحرة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه، فاخصمنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير: "اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك" فغضب الأنصاري، فقال إن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله ثم قال: "اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدار" (أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشرب والمساقاة، باب سكر الأنهار 2370-2371/3).

الفرع الثاني: الحد من الإسراف والحفاظ على الثروة المائية

تعتبر كثافة الاستغلال والإفراط في استخدام المياه وخاصة الاستخدام الزراعي، من أبرز المشاكل المائية في الوطن العربي، حيث تستهلك الزراعة ما بين 80 و 90 بالمائة من الثروة المائية وذلك بسبب تقليدية أنظمة السقي والعيوب التي تعترى بعض المخططات الزراعية التي تركز على تطوير المزارع التي تحتاج إلى كميات كبيرة من الماء، وإغفال المنتجات الزراعية الأقل استهلاكاً للماء كمادة الحبوب، بالإضافة إلى انتشار الاعتقاد الخاطئ في صفوف الأفراد على أن المياه مصدر طبيعي لا ينفذ، مما يدل من جهة عن جهل بظروف الطبيعة والقحولة، ومن جهة أخرى عن تقصير في فهم قواعد الدين الإسلامي التي أسست لحفظ استمرارية الحياة البشرية، فالنهى عن تبذير المياه والإسراف في استغلالها مبدأ وقاعدة أساسية وليس تدخل آني عابر يحضر في أوقات الندرة والجفاف ويغيب في حالات الوفرة.

إن تعاليم الشرع الإسلامي كانت سباقة إلى المحافظة على النعم والموارد كيفما كان نوعها، لذلك نهت عن الإسراف باعتباره أحد أسباب اختلال المنظومة البيئية وما في ذلك من تداعيات سلبية على استدامة هذه الموارد وعلى التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وكذا من أسباب خلق التفاوتات الاجتماعية والمجالية، فوصول فئة من المجتمع أو مجموعة بشرية معينة إلى مورد ما واستغلاله بإفراط يعني إقبار حق باقي الفئات الاجتماعية والمجموعات البشرية في الوصول إلى هذا المورد. من هذا المنطلق، نهى القرآن الكريم عن الإسراف في أكثر من موضع، إذ يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف 31) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الاسراء الآية 27). ودعا بالمقابل إلى الوسطية والاعتدال، إذ يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة الآية 143: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. لذلك، فتبذير الماء والإسراف في استعماله منهي عنه شرعاً ولو في حالات الوفرة؛ لما في ذلك من تدمير للبيئة الطبيعية، ومن تهديد لاستمرار الحياة البشرية ولإعمار الأرض، وفرة الماء شرط لتحقيق التنمية

الاقتصادية والبشرية، وللاستقرار السكان، وندرته عامل من عوامل تدهور الأرض وتراجع خصوبتها، وهجرة السكان عنها باتجاه المناطق الأكثر وفرة.

وحرصت السنة النبوية على حماية الموارد المائية من الإسراف والتبديد، فعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسعد وهو يتوضأ، فقال: "ما هذا السرف؟ فقال أفي الوضوء إسراف؟ قال: نعم، وإن كنت على نهر جار" (ابن ماجة في السنن كتاب أبواب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي (147/1)، رقم (425) قال في الزوائد أسناده ضعيف)، وروي أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الوضوء، فأراه ثلاثا ثلاثا، ثم قال "هذا الوضوء، فمن زاد على هذا، فقد أساء أو تعدى أو ظلم" (ابن ماجة في السنن كتاب أبواب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي، ح (422)). وورد عن عبد الله بن مَعْقِل رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالْذُّعَاءِ" (رواه أبو داود في السنن، كتاب الطهارة، باب الإسراف في الماء 96/2. صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود 96/1)، فهذا الحديث وأحاديث غيرها في الوضوء والطهارة والتي لا تحتاج إلا قدر يسير من الماء تبين حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاعتدال في استعمال الماء ولو في زمن الوفرة، فالحديث الثاني يرقى بالاستعمال المفرط في الماء إلى حد الاعتداء ولو في العبادات كالوضوء والغسل. وللأسف ما ينبغي أن نكون فيه سابقين ومبادرين نرى فيه سبق للأمم غير مسلمة، فمثلا نموذج ترشيد استعمال المياه في دول أوروبا الغربية ذات المناخ الرطب والموارد المائية الوفيرة جد متقدم، سواء في التشريعات ومدى تطبيقها، أو فيما يتعلق بالوعي الفردي والجماعي بأهمية المحافظة على الماء.

الفرع الثالث: حماية الماء من التلوث

يعتبر تلوث الماء من المشكلات التي تتضافر إلى مشكل الندرة، فقد ثبت علميا أن 1 لتر من المياه الملوثة يلوث 8 لتر من المياه العذبة. ومن المؤسف أن نرى في زماننا مدنا كبرى وتجمعات سكانية تصرف المياه العادمة مباشرة في الأودية وفي الطبيعة وما ينتج عن ذلك من تلوث للمياه الجوفية والسطحية، ويزداد الأمر خطورة في المناطق الجافة وشبه الجافة التي يتوقف فيها جريان الأودية لفترات طويلة من السنة مما يفقدها قوة التطهير الطبيعي التي يقوم بها الجريان المائي.

لذلك، أولت السنة النبوية باعتبارها المصدر الثاني للتشريع أهمية قصوى للمحافظة على الماء، ونهت عن تلويث المياه سواء كانت راكدة أو جارية. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه" (أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب الماء الدائم 243/1)، والمقصود من هذا النهي، هو الحفاظ على جودة الماء بما يضمن استعماله عند الحاجة، وضمان صحة الإنسان.

ولم تكتف السنة النبوية بالنهي عن تلويث المياه فقط، بل وضعت إجراءات عملية ووقائية قبل حصول التلوث، ومن أمثلة ذلك دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تغطية أواني حفظ الماء لحمايته من التلوث ومن الطفيليات والبكتيريا التي تنتقل عبر الهواء أو التي تنقلها الحشرات، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "غطوا الإناء واركبوا السماء فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء" (صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء وإغلاق الأبواب وذكر اسم الله عليها). وبلغ حرص الرسول الكريم على حماية الإنسان من مخاطر تلوث الماء حد النهي عن النفخ في الشراب حماية له، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ نَهَى أَنْ يُتَنَفَّسَ فِي الْإِنَاءِ، أَوْ يُنْفَخَ فِيهِ" (رواه الترمذي في سننه، حديث 1888 كتاب الأشربة، باب ما جاء في كراهية النفخ في الشراب، قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح. ص 442).

ويستنتج من النصوص والأحاديث النبوية السابقة، حرص الإسلام على الحفاظ على الماء وضمان سلامة الأفراد والجماعات، ولو تعلق الأمر باستعمال الماء في العبادات التي لا تحتاج إلا لقدر يسير من الماء، أو تعلق الأمر بنفر أو بمجموعة صغيرة من الناس تستعمل نفس مصدر الماء للشرب (الإناء حسب ما ورد في الحديث الشريف)، وهذا الأمر فيه توجيه غاية في الرقي، مفاده أن البناء الحضاري والتربية على القيم المثلى تنطلق من الأفراد، وتتسع لتشمل مجموعات بشرية كبرى ومن مقاييس مجالية صغرى إلى مقاييس كبرى.

الخاتمة (نتائج وتوصيات)

خلصت دراسة موضوع "أهمية الماء وتدابير المحافظة عليه في الكتاب والسنة" إلى النتائج التالية:

- يشكل حسب الآيات القرآنية مصدرا لخلق الانسان وعنصرا تستحيل الزراعة وعمارة الأرض بدونه.
- الإسلام سباق لوضع التشريعات والأسس التنظيمية والتدبيرية للمحافظة على الماء.
- تركيز التشريع الإسلامي على مبدأ الملكية العامة للمياه، تحقيقا للعدالة في توزيع الثروة المائية وحماية لحقوق الضعفاء.
- تشجيع السنة النبوية على الاستثمار في المياه سواء كانت سطحية أو جوفية.
- الدعوة إلى ترشيد استعمال الماء ولو تعلق الأمر باستعماله في العبادات (الوضوء والطهارة).
- نهى السنة النبوية عن تلويث المياه سواء كانت راكدة أو جارية.

وفي ختام هذه الدراسة يوصي الباحثان بـ:

- العودة إلى الكتاب والسنة أثناء وضع مخططات تدبير الموارد المائية.
- تعزيز التوعية بأهمية الاستثمار في توفير الماء والمحافظة عليه (عقلنة استعماله، حمايته من التلوث) من خلال المساجد (خطب الجمعة، سلسلة الدروس الوعظية...)، نظرا لدورها في نقل تعاليم الدين الإسلامي وقدرة الخطباء والأئمة على إيصال هذه التعاليم إلى شرائح واسعة من المجتمع.
- تعزيز التربية البيئية الدينية وخاصة ما يتعلق بتدابير المحافظة على المياه في المناهج التعليمية.

المصادر والمراجع:

أولا: القرآن الكريم وعلومه

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

- ابن كثير اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، ج6، دار طيبة للنشر والتوزيع ط (1999 1460هـ).

- البزار أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتيقي، البحر الزخار بمسند البزار، تحقيق عادل بن سعد، ج13، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط1 (1426هـ / 2005م).

- الرازي محمد فخر الدين بن عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر - بيروت، ط 1 (1401 هـ/1981م).
- الطبري أبي جعفر محمد بن جرير، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر-القاهرة ج 23، ط1 (1422 هـ/ 2001 م).
- القرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج 15، مؤسسة الرسالة، ط1 (1427 هـ/ 2006 م).
- القشيري أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ج 3، دار الكتب العلمية- بيروت، ط 1 (1412/1991 م).
- ثانيا: كتب السنة**
- ابن ماجة أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ج1، مطبعة إحياء الكتب العربية، د ط، د ت.
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق ابو تراب عادل بن محمد وابو عمر وعماذ الدين عباس، م 5، دار التأصيل، ط 1 (1436 هـ/ 2015م).
- الالباني محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب، ج 1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1 (1421 هـ/ 2000م).
- الالباني محمد ناصر الدين، صحيح سنن أبي داود، م 1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع- الرياض، ط1 (1419/1998).
- البخاري ابي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجففي، صحيح البخاري، م 3، دار التأصيل، ط 1 (1433 هـ/ 2016م).
- الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، نشر وزارة الشؤون الإسلامية بالسعودية، ط2 (2000).
- القرطبي أبو العباس أحمد بن عمر، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق يوسف علي بديوي وآخرون، ج 4، دار ابن كثير - دمشق ط 1 (1417 هـ/ 1996).
- ثالثا: كتب عامة**
- الخطيب حسن أبو سمور وحامد، جغرافية الموارد المائية، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع- عمان، ط1 (1999).
- الزهيري توحيد، الماء في القرآن والسنة والعلوم الحديثة: مقالات للتفسير، مكتبة الدار العربية للكتاب-القاهرة، ط1 (2003).
- عميرة عبد الرحمن، الحياة بين العلم والدين، دار الجبل، ط (1998م).
- رابعا: بحوث**
- الأمم المتحدة، الاسكوا: تقرير المياه والتنمية التاسع، المياه الجوفية في المنطقة العربية، 2021.
- برنامج الأمم المتحدة للتنمية، حوكمة المياه في المنطقة العربية: إدارة الندرة وتأمين المستقبل، 2013.
- سلامة مصطفى عبد الغني عبد العزيز، "الماء في القرآن الكريم والعلم الحديث"، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين- جامعة الأزهر، 2010.
- موقع مجموعة الشراكة العالية للمياه على شبكة الأنترنت <https://www.gwp.org> (6-6-2024)

-E Je'quier and F Constant , Water as an essential nutrient: the physiological basis of hydration, European Journal of Clinical Nutrition 2010.

- Lang F, Waldegger S. Regulating cell volume. Am Scientist 85, 1997

-H.H.G Savenije Water resources mangement concepts and tools, international institute for infrastructural, Hydraulic and environmental engineering, Netherlands 1996